

مؤرخ تطور الإنسان من قبل التاريخ
في ضوء الاكتشافات الأثرية وعلم الإنسان
محمدي فيضي عبد الرزاق

الغلاصة

ان الدراسة التي هي تحت البحث ذات بعد واسع وهواصل متداخلة وتشتمل على عصور عديدة جدا والتي شكلت حضارة جنس البشر .
ان تاريخ الشرق الادنى ذو بعد واسع وقد ارتبط بتاريخ المناطق الاخرى .

ولقد ارتبط العامل الجيولوجي بعامل ما قبل التاريخ طالما ان الشرق الادنى كان هدفا لمخلقات منذ العصور الاولى لجنس البشر .
وعلى الاسس الحضارية ، فقد رأى الشرق الادنى القديم ظهور الحضارات الاولى والمظلمى ولذلك يجب ان تؤخذ الروابط الحضارية بنظر الاعتبار بالضرورة .

ان جميع هذه العوامل ومعقداتها تلعب دورها بطريق او باخر في تاريخ جنس البشر . والان ، كيف تمكن انسان من السيطرة على بيئته والظواهر الطبيعية ؟
في الاجابة على هذا التساؤل أقدم هذه الدراسة .

ABSTRACT

.....

The study under discussion has a wide dimension, an interconnected factors, and involves so many ages which shaped mankind culture.

The history of the Near East has a wide dimension and it has been connected with the history of other regions.

The Geological factor is directly connected with historical one since the Near East has been a target for deposits from the earliest periods of mankind.

On cultural grounds, the ancient Near East saw the emergence of the earliest and greatest civilizations, thus cultural ties must necessarily be considered.

All these factors and their manifold derivative issues play their role in one way or another in the history of mankind.

Now, how could man control his environment and natural phenomena? In answering this question I present this study.

المقدمة

ان اكثر من ٩٩٪ من حياة الانسان يدخل ضمن عصور ما قبل التاريخ ،
ويقدر عمر الانسان بنصف مليون سنة على الاقل لم يترك لنا خلال هذه الحقبة
الطويلة تسجيلات مدونة بل ترك بشكل غير مقصود ما يشبه التسجيل من نمط
وطريقة حياته الاولى .

اعتقد بعض العلماء بان « مهد الجنس البشري » قد حدث في اواسط
قارة آسيا ، بينما اعتقد اخرون بانه قد حدث في افريقيا . وفي الحقيقة اننا
لا نزال غير متاكدين اين حدث ذلك بالضبط ، الا ان المعلومات الوحيدة التي
استطعنا التوصل اليها هو ان اقدم عظام مكتشفة تعود للانسان يقدر عمرها
بنصف مليون سنة ، عثر خلالها على الادوات التي صنعها وتوصلنا الى معرفة
الاماكن التي التجأ اليها ، فتدلنا هذه المعلومات على الاسلوب الذي اتبعه ذلك
الانسان في عيشه وعلى المادة الحضارية التي خلفها وعلى معتقداته المتمثلة
بالاعتناء بالشخص الميت ورسم صور الحيوانات على جدران الكهوف التي
عاش فيها (١) .

كانت اوربا واسيا قبل حوالي نصف مليون سنة قد قاست من فترات
جليدية دامت آلاف السنين ، ويعتقد الجيولوجيون بانه حدثت اربعة عصور
جليدية خلال عصر البلايستوسين (وقعت في الفترة بين ١٠٠٠٠٠ -
١٠٠٠٠ سنة) وعاشت فيها انواع مختلفة من الحيوانات التي انقرضت
وكذلك عاش انواع من الاناس .

ويرى الانثروبولوجيون بان اهم صفة يجب ان تكون موجودة عند
الانسان ليكون انسانا هي خاصية التكيف البشري الذي اطلقوا عليه بمصطلح
(culture) الذي يدل على قدرة الانسان الاستفادة من الخبرة
المنقولة من جيل الى جيل .

1. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men, 1967, pp. 7-34.

وأدهى علماء التشريح خلال السنوات الماضية بان اقل مقياس للمقابلة الدماغية يقدر بـ (٧٥٠) سم^٣ الذي يمكن قبوله لتمييز الانسان عن الحيوان (٢) .

اما المختصون بمصور ما قبل التاريخ فقد لجأوا الى اسلوب خاص لتمييز الانسان عن الحيوان يعتمد على صناعة الادوات ووضعوا تعريفا معينا للانسان بانه « الصانع للادوات » (٣) .

وبما ان ظهور افراد العائلة البشرية قد حدث قبل اربعة ملايين سنة وان راماثيكاس يقع على رأس الخط البشري ، ولوجود تشابه فيما بينهم وبين القردة العليا مما يدل على انهم انحدروا من اصل واحد .
عثر على مخلفات البشر المعتدل القامة في معظم انحاء العالم القديم بحيث قدرت فترتها الى ما قبل ٧٠٠٠٠٠ - ٣٥٠٠٠٠ سنة لاسيما في الصين وجاوة وشرقي افريقيا والمانيا ومراكش والجزائر ، وبسبب الشبه المورفولوجي الموجود فيما بينهم وظهورهم في زمن متقارب اطلق عليهم جميعا اسم البشر المعتدل القامة Homo Erectus ، ومن اهم الميزات المورفولوجية التي امتاز بها هؤلاء البشر هي :

١ - اصبح حجم دماغ هذا البشر مرتين اكبر من حجم دماغ البشر القردوي أي بين ٧٧٥ - ١٣٠٠ سم^٣ وقريبا الى الحد الاصغر لمعدل حجم دماغ الانسان العاقل وهو ١٤٥٠ سم^٣ .

٢ - كان هذا البشر قصير القامة (اكثر بقليل من خمسة اقدام) .

٣ - كان قويا وذو قامة معتدلة .

اما الانسان العاقل فلا بد ان يتمتع بصفات مورفولوجية معينة لكي يضمه الانثروبولوجيون في رتبة الانسان العاقل بحيث تميزه عن رتبة القردة العليا واهمها :

-
2. Brace, C. Loring, the stages of Human Evolution; 1967; pp. 50-52.
 3. Oakley, Kenneth, Man the tool-Maker ; 1966 ; pp. 1-22.

- ١ - مقياس سعة دماغية تتراوح بين ١٠٠٠ - ٢٢٠٠ سم^٣ .
- ٢ - الصفات البشرية ذات الارتباط بكبر حجم الدماغ كالقدرة على التأمل والذاكرة القوية واستعمال اللغة .
- ٣ - انتصاب القامة والسير على الارجل وهما صفتان مهمتان تنعكسان على العمود الفقري والرجلين وتركيب الجمجمة وعظم الحوض .
- ٤ - جبهة عالية عديمة عظم حاجب بارز .
- ٥ - عدم بروز الانياب (وهي صفة القرود العليا) .
- ٦ - انعدام الثفلة بين القواطع والانياب .
- ٧ - انتهاء الفك الاسفل بذقن بارز .
- ٨ - سقف الفم مقوس بشكل هلال (٤) .

ففي بداية عصر البلايستوسين (Pleistocene) صنع الانسان الات وادوات من الحجر وتوصل الى معرفة استعمال النار ، والدليل على ذلك جاءنا من كهف « جوكوتين » الواقع بالقرب من بكين في الصين . ان معرفة الانسان للنار اعتبرت من قبل العلماء على انها الخطوة الحضارية الكبرى في تحرير نفسه من قساوة البيئة ومع ذلك ان الاشارات عن الحضارة البدائية ارتكزت على الادوات والالات التي صنعها انسان ما قبل التاريخ (٥) .

ان اختلاف البيئة وكثرة التقلبات المناخية التي حدثت في فترات متباينة اثناء عصر البلايستوسين قد اثرت تأثيرا كبيرا في هجرة الانسان القديم وانتقاله من منطقة الى اخرى ، الا انه ليس لدينا من دلائل تشير الى انها قد اثرت بشكل خاص في تطور حضارة الانسان عندما اصبح ذا قابلية عقلية متميزة عما كانت عليه في الفترات التي سبقت ذلك ، وازافة الى هذا فقد

4. Simpson, Gaylord G, the Biological Nature of Man. In Perspectives of Human Evolution; 1967; pp. 8-10.
5. V. Gordon Childe, Man Makes Himself; 1961 ; pp. 22 29.

تطورت حياته الاجتماعية بشكل تدريجي وبسيط . ان ظهور القابلية العقلية لدى الانسان القديم وتبدل حياته الاجتماعية هي التي جعلته ينتقل من طور الحياة البدائية المتوحشة الى طور الحياة الجديدة (٦) .

اعتمد الانسان القديم في عيشه على الصيد الذي كان المصدر الرئيس لمأكله وملبسه ، وان مشكلته الكبرى كانت كيفية الحصول على تلك الحيوانات بواسطة ادواته البدائية التي صنعها بنفسه آنذاك ، لذا أخذ يبحث لنفسه عن الثقة والنجاح باتباع وسائل معينة للسيطرة على فريسته ، ومن الوسائل المهمة التي اعتقد بها هي السحر لانه اعتبر الحيوانات على اختلاف انواعها المنافس المباشر له اي ان اصطيادها والسيطرة عليها هي مشكلته الكبرى في حياته .

ففي الصين ، اصطاد انسان بكين مختلف الحيوانات ودليلنا على ذلك العثور على بقايا عظام تلك الحيوانات وهي الجاموس والجمال والغزال والفيل والحصان والاغنام ، وكانت الغزلان تؤلف ٧٠٪ من تلك الحيوانات التي استطاع الحصول عليها في غذائه .

ان الدلائل تشير على ان انسان بكين كان مولعا بأكل مخ الجوامع ومخ العظام الطويلة التي كسرها متعمدا لهذا الغرض والتي عثر على كميات هائلة منها . وحينما اصبح المناخ دافئا والأمطار كافية لتتم الحشائش البرية استعمل انسان بكين غذاء نباتيا .

اما الاماكن التي التجأ اليها اناس ما قبل التاريخ واتخذوها محلا لسكنائهم فكانت فتحة الكهوف وليس باطنها وذلك لاسباب عديدة اهمها انهم لم يرغبوا السكن في الاماكن المظلمة والسبب الاخر انهم ارادوا ان يتجنبوا مفاجئة الحيوانات لهم ومحاصرتهم من قبلها داخل الكهوف ، لذا نجدهم في كثير من الاحيان فضلوا العيش في ملاجئ صخرية ، وحينما تبدل المناخ واصبح معتدلا تركوا عادة السكن في الكهوف وعاشوا في العراء .

ان اهم الكهوف المعروفة لدينا في العالم التي سكنها انسان ما قبل التاريخ تقع في فرنسا وانكلترا وإيطاليا واواسط اوربا واسبانيا وافريقيا والصين والشرق الادنى .

6. Graham Clark, From Savagery to Civilization; 1964, p. 25.

فبالنسبة للمادة الحضارية التي حصلنا عليها من الكهوف الاوربية التي عن طريقها استطعنا التعرف على نمط حياة الانسان القديم في الفترات الاولى لعصور ما قبل التاريخ ، هي تلك المادة التي تؤرخ بين ١٢٠ - ٣٥ الف سنة وظهرت اثنائها ثلاثة انواع من انسان النياندرتال حيث عثر على هياكلهم في بقاع مختلفة من العالم مثل روديسيا ، فرنسا ، الصين ، فلسطين والعراق (٧) .

اولا : نياندرتال غرب اوربا والعراق (شانيدار) ، عرف على انه النوع الكلاسيكي الذي اتصف بقابلية دماغية تفوق معدل القابلية الدماغية للانسان العاقل حيث ظهر انها تزيد عن (١٦٠٠ سم^٣) وكان قصير القامة طوله حوالي خمسة اقدام ، ذو جسم ممتليء يفوق بضخامته البشر المعتدل القامة ، كثير العضلات ووجه طويل وفكه السفلي كبير الحجم ينتهي بذقن . يستدل من هذه الصفات الجسمية على ان هذا الانسان كان قويا استطاع مقاومة البيئة التي عاش فيها (٨) .

ثانيا : نياندرتال افريقيا ، ظهر في الصفات الجسمية بان هذا الانسان يشابه النوع الاول باستثناء بعض الفروق التي اعتبرت من قبل الانثروبولوجيون على انها مهمة بالرغم من التشابه في ضخامة الجسم وقصر القامة . ان اهم الفروق المورفولوجية هي ان الجمجم التي عثر عليها في روديسيا كانت اصغر في حجمها من جمجم النوع الاول (١٢٠٠ سم^٣) والوجه اكثر طولاً من الوجه الاوربي والعيون تعلوها عظام حاجب يضاوي في سمكه عظام حاجب السفوريلا المعاصر .

ثالثا : اما في فلسطين فنجد نوعا اخر من النياندرتال ، حيث عثر على عدد من الهياكل العظمية في كهوف الصخول وطابون التي اتضح من دراستها على انها تمثل نياندرتال متطور وذلك لان حجم جمجمة كل منها اصغر من حجم جمجمة النوع الاوربي (حوالي ١٤٠٠ سم^٣) ، وظهر ايضا بان عظام الحاجبين اصغر وبروز الوجه قليل ، وتدل هذه الصفات

7. Mcbern and Mcbern, Human Origins; 1969; pp. 88-93.
8. Howell, F. C., the Evolutionary significance of variation and varieties of Neandertal Man; 1967; pp. 330-347.

على ان هذا الانسان كان اقرب الى الانسان الحديث ، اضافة الى ذلك
فقد عثر في فلسطين ايضا على النياندرتال من الطراز الكلاسيكي الذي
وجد مع النياندرتال المتطور .

ومن المحتمل ان بعض الانواع الحديثة لهذا الانسان قد عاشت في
الكهوف ايضا ، الا ان الشيء الوحيد الذي عثر عليه هو هياكلهم العظمية
فقط وبصورة خاصة في المناطق المرتفعة من فلسطين (٩) .

ففي عام ١٩٢٨ - ١٩٣٤ نقتب بعثة مشتركة من قبل مدارس ابحاث
ما قبل التاريخ الانكليزية والامريكية في كهف «مشيكة» القريب من الرملة
وعثرت فيه على جمجمة من النوع الزنجي ووجدت بانها تعود الى العصر
الحجري الوسيط والمنحدرة من نوع انسان النياندرتال . اما في الفترة بين
١٩٣٥ - ١٩٣٨ فقد عثر على سبعة هياكل عظمية تعود الى انسان النياندرتال
ايضا في جبل قفزة .

وضع باول كاركة تقريراً وضع فيه وجود مستوطنات في فلسطين
تعود الى المصور الحجرية وخاصة في كهفي « الاميرة » و « الزوتية » ، عثر
فيها على جماجم تشابه جماجم انسان النياندرتال . ان من بين المواد
الحضارية التي عثر عليها واعتبرت الرئيسة من حيث صناعتها هي الشفرات
الصوانية الطويلة والمقاشط مع ادوات عظمية معمولة (١٠) .

ان بعض النظريات التي وضعت بشأن المرحلة التطورية لانسان
النياندرتال قد اعترفت بتمثيل النياندرتال مرحلة تطورية ، بينما جاءت
نظريات اخرى لم تعترف بذلك وترى ان هذا النوع من البشر لم تكن له
قيمة من الناحية التطورية بل انه لا يمثل مرحلة تطورية بين البشر المعتدل
القامة والانسان العاقل .

فالنظريات الاولى تعتبر الفترة الزمنية التي عاشها النياندرتال هي
فترة طويلة تمتد من (١٥٠) او (١٢٠) الى (٣٥) الف سنة ترك خلالها مادة
حضارية انتشرت في انحاء العالم القديم اتصفت بميزات معينة وتميزت

9. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1964 ; pp. 45-53.

10. Anton Lubke, the World of Caves ; 1957 ; pp. 44-48.

بالحضارة المستيرية (نسبة الى الشظايا المستيرية التي عثر عليها في موستير بفرنسا) . وتوجد نظرية تقول بانه لايمكن ان يكون هناك اكثر من نوع بشري واحد في آن واحد ، يعتبر هذا القول اعتراف تام باعتبار السونو النياندرتالي مرحلة تطورية (١١) .

اما النظريات التي تؤكد على انه لايمثل مرحلة تطورية فهي تستند في ذلك على الفترة الواقعة بين انتهاء مرحلة البشر المعتدل القامة وظهور النياندرتال التي ظهرت فيها المجموعة الاولى من البشر العاقل مثل انسان شتاتهايم في المانيا وفوتشناد في فرنسا وسوانسكومب في انكلترا وان هذه المجموعة استمرت في عيشها الى ان عاصرت النياندرتال . ومن دراسة الصفات القليلة من صفات الانسان العاقل الموجودة في جماجم شتاتهايم وسوانسكومب لذا اعتبرت على انها تمثل النياندرتال المتطور .

اذن ماهي معرفتنا عن نمط الحياة التي عاشها هذا الانسان في الفترة الواقعة بين ١٢٠.٠٠٠ - ٧٠.٠٠٠ سنة او حتى احدث من ذلك ؟

بالنسبة للادوات والالات البدائية فقد تناول الانسان الاول واستعمل كل انواع الحجر المتوفر في بيئته حيث استعمله اثناء اصطياده الحيوانات . وربما كانت هناك ثلاث خطوات رئيسية لصنع الادوات هي :

١ - تتمثل الخطوة الاولى باستعمال اي نوع من انواع الحجر في سبيل الوصول الى منفعة بسيطة ومنها الاحجار الصغيرة الحجم بأشكالها المتعددة .

٢ - ربما بدأ الانسان عند هذه المرحلة بعمل اداة من الاحجار كلما دعت الحاجة لذلك ، ومن المحتمل ان ادوات الحصى القديمة تقع ضمن هذه المجموعة .

٣ - تعتبر هذه المرحلة من اهم الخطوات التطورية التي توصل اليها الانسان حيث تعتبر البداية الحقيقية التي شرع فيها من صنع ادوات الحجر حسبما تتطلبه ظروف معينة .

11. Brace, C. Loring, the Stages of Human Evalution ; 1967 ; pp. 83-96.

أما بالنسبة لادوات الصوان فقد عرف الإنسان كيفية تشطيبها من قطع كبيرة واستعملها لأغراض عديدة منها الشطع والنقش والحك ، وهذا يدل على أن الإنسان اضطر على صنع هذه الأدوات البدائية البسيطة للتغلب على قساوة البيئة وحماية نفسه من الحيوانات الوحشية وتطمينا لاحتياجاته الأخرى (١٢) . هذا وقد ظهرت صناعات أدوات الحجر في فترة البلايستوسين الوسطي في معظم أرجاء العالم القديم على شكل مجموعتين صناعيتين رئيسيتين هما :

١ - تمثلت المجموعة الأولى بصناعة الفؤوس اليدوية .

٢ - وتمثلت المجموعة الثانية بصناعة الشظايا .

ويبدو أن هاتين الصناعتين الرئيسيتين كانتا ذات علاقة بالاختلافات الأساسية في ظروف الحياة آنذاك . ومن الأهمية بمكان أن صناعة الفؤوس اليدوية كانت ذات علاقة بالمناطق التي كان فيها النبات غزير .

وخلال التاريخ الطويل لصناعات الحجر الذي مر بمراحل عصر البلايستوسين القديم والوسطى والحديث ، تطور كل تقليد موروث لصناعة رئيسية من الصناعات آنفة الذكر بشكل بطيء وطرات خلال عملية التطور هذه عملية تهذيب في الشكل والتشفاة وتطيفي تام الذي اوجدت من أجله كل صناعة من هذه الصناعات (١٣) .

إن الحدث المهم الذي يدل على أن إنسان هذه الفترة قد عرف بداية ما يطلق عليه « الترابط العائلي » هو اهتمامه بدفن موتاه ، وهذا ماظهر بكل وضوح من الهياكل العظمية التي عثر عليها غير مطروحة بشكل اعتباطي في حفرة صغيرة بهيئة القرفضاء . والدليل الآخر الذي يؤكد على ذلك ما عثر عليه في باطن تلك الحفر من أدوات صوانية وعظمية وفي بعض الأحيان عثر على أحجار مسطحة فوق تلك الحفر . فقد عثر على البقايا العظمية التي تعود لإنسان التياندرتال في العراق (كهف شانيدار) تحت الصخور بحالة مهشمة مما يدل على أن قتله حدث أثناء وقوفه ، بينما وجدت بقية عظام أطرافه

12. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1964 ; pp. 33-44.

13. Grahame Clark, From Savagery to Civilization ; 1946 ; pp. 35-33.

السفلى في مكان ابعد من الهيكل العظمي وهذا يشير الى عبث الحيوانات .
اما بالنسبة لهياكل اخرى من شانيدار فقد عثر عليها وفوقها مجموعة من
الصخور الممكن حملها مما يشير الى اهتمام جماعته به . اضافة الى ذلك عثر
على مجموعة من عظام اللبائن موضوعة فوق الهيكل العظمي ، فمن المحتمل ان
الجماعة التي وضعت الصخور هي نفسها تركت بعض الطعام الذي يحتاجه
الميت ، فاذا صح هذا الافتراض فهل يعتبر القيام بمثل هذا الاعتناء قد حدث
نتيجة لاعتقاد معين او شبه احتفال ؟ فلا زال ذلك غير مؤكد . وكما ذكره
سابقا على انه وجدت بقايا انسان النياندرتال في اماكن اخرى (كهف
شانيدار) مدفونة بشكل طقوسي واهتمام واضح من قبل جماعته حيث عثر
على لقاحات بهيئة ازهار وضعت حول حفرة الهيكل العظمي بشكل
دائري (١٤) .

اجريت التنقيبات في كهف شانيدار بين ١٩٥١ - ١٩٦٥ واطهرت
النتائج تعيين ستة عشر تاريخا بواسطة اختبار كاربون (١٤) فكشف بذلع
عن مختلف الصناعات بتسلسل زمني (ضمن العصر الجليدي الرابع) .

ان هذا الكهف احتوى على اربعة عشر مترا من تراكمات اثرية ، ميزت
منها ثمانية اعمار تمثل العصر المستيري Mousterian ظهرت فوقها
طبقات الفترة الاخيرة التي تعود الى العصر الحجري القديم الاعلى التي اطلق
عليها الحضارة البرادوستية Baradostian وفوقها تم كشف طبقات
العصر الحجري الوسيط المسمى ميسوليثيك (Mesolithic) ثم ما قبل
العصر الحجري الحديث Perneolithic

اجريت تحليلات دقيقة للقاحات النباتية Pollens التي عثر عليها
في هذا الكهف ، وعلى الرغم من قلتها في طبقات شانيدار فقد اصبح من الممكن
التوصل الى معرفة بعض المعلومات المناخية التي طرأت على المنطقة آنذاك .

اما النتائج الخاصة بالنباتات فكانت متشابهة فيما بينها في مقطع
التتابع الزمني التابع لفترة العصر الحجري القديم من الطبقات العليا حتى

14. Ralph S. Solecki. Early Man in Cave and Village
Shanidar ; 1959 ; P. 714.

الطبقات السفلى • ولم يكن لبعض هذه النباتات غير ساق قصير ، وهذا يحتم وجود عدة اجناس تمثل هذه النوعيات مما يؤدي ذلك الى تجمع ازهارها لتكوين نماذج من اللقاحات في هذا المكان •

تم العثور على نماذج غنية بالازهار من مستوى كان يستقر فوقه هيكل عظمي في الطبقة البنية الغامقة من الكهف •

لقد حقق دراسة اللقاحات الدكتور دبليو • فان تساييت W. Van Zeit واثبت بان الانواع الرئيسية التي عثر عليها بهيئة ازهار هي :

- البابونج ، وزهرة اصفر اللون
- الاخيليا ، وهي من فصيلة نباتات الاشيليا
- الزنبق ، وزهرة ازرق اللون
- القنطريون ، وزهره يسمى شيخ الربيع لكثرتة

لاتزال تزدهر هذه النباتات في اعالي جبال زاكروس في شهري مايس وحزيران وهي نفس الفترة التي وضع فيها انسان النياندرتال (٤) في كهف شانيدار تلك النباتات قبل اكثر من خمسين الف سنة بين نهاية شهر مايس وبداية شهر تموز علما بان ذلك حدث - مع اختلاف المناخ - خلال العصر الجليدي فورم Wurm خصوصا وان الارتفاع الذي يبلغه الكهف ٨٢٢ متر (١٥) •

ان الدراسات الاولى لفترة العصر الحجري القديم (الباليوليثك) Palaeolithic في بلاد ما بين النهرين قامت بها الاستاذة دوروثي كارود عام ١٩٢٨ • ظهر لها من نتائج تلك الدراسات بانه في بداية العصر الحجري القديم كانت هناك جماعات من البشر سكنت الكهوف في العراق الا انهم في منتصف هذا العصر اي عند بزوغ الحضارة المستيرية تركوا عادة سكنى الكهوف وعاشوا في العراء •

-
15. Arleet Lura — Gorhan, Neanderthal Man IV in Shanidar Cave; Bulletin of the French Prehistoric Society; No. III March, 1968.

لقد اعتبرت منطقة راوندوز الموطن المحتمل لانسان ما قبل التاريخ في بلاد ما بين النهرين ، وهي تقع في الشمال الغربي من جبال زاكروس التي تختلف في ارتفاعها من ٢٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم (١٦) . ولهذا استندت معرفة عمر الكهوف على دراسات جيولوجية وحضارية وأركيولوجية التي تمثلت بصناعات الحجر وطرق عيش الانسان آنذاك .

فقد شعر الجيولوجيون والاثاريون منذ زمن بدافع قوى لاستكشاف اعماق الارض لمعرفة ما تحتويه بطون الكهوف التي تكونت معظمها بواسطة القوى الطبيعية . وبما ان الاختصاصي بعلم الجيولوجي يستطيع تمييز عدة انواع مختلفة من الحفر الطبيعية كالصخور البلورية والكهوف الشقية والمجوفة المتكونة بتأثير مياه البحر وكذلك الكهوف التي تكونت بواسطة عوامل التعرية والمياه ويستطيع تمييز المآوي الصخرية والكهوف الناتجة عن سقوط الارض ثم الكهوف الثلجية ، واذا ما انعدمت صفات الستلكتايت والستلكمايت في الكهوف فان عالم الجيولوجي يستطيع معرفة نوع الكهوف من عوامل جيولوجية وحيوانية بالاضافة الى عوامل اخرى تمكنه من معرفتها بشكل اكيد (١٧) .

لقد اثار اكتشاف كهف انسان النياندرتال في المانيا الرغبة لتتقفي اثار الانسان البدائي لمعرفة بداية الجنس البشري وهل انه من القردة Apes وهذا لا يتم الا بدراسة الهياكل العظمية التي استتاع الاثريولوجيون والاثاريون الحصول عليها من الكهوف المنتشرة في ارجاء العالم .

هناك نوعان من الكهوف منها الطبيعية ومنها الاصطناعية وكلا هذين النوعين يمكن ايجادهما في مناطق مختلفة من العالم .

فالكهوف الاصطناعية قد عملت نتيجة لرغبة الانسان بالعيش في مكان ملائم وامين ، ولم يحدث هذا الا في فترات متأخرة ولا سيما في العصر الحجري الحديث . اما الكهوف الطبيعية فقد سكنها الانسان منذ بداية العصر الحجري القديم ولم تهجر كلياً حينما اخذ المناخ في الاعتدال .

16. Garrod, D. A. E., the Palaeolithic of Southern Kurdistan : Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Merd. Bulletin of the American School of Prehistoric Research ; 1930 ; No. 6 ; pp. 12-14.

17. Anton Lubke, the World of Caves ; 1958 ; pp. 166-170.

ان ارضية كل كهف مكونة من عدد من طبقات التربة وان كل واحدة من هذه الطبقات قد تكونت في فترة تختلف عن الطبقة الثانية وان كل منها تحتوي على مواد حضارية تميزها عن الاخرى كالعظام وقطع الصوان والادوات الحجرية . ولقد اتخذت التربة هذا الترتيب الطبقي في كل كهف واصبحت تختلف في مكانها ومظهرها بسبب الظروف المختلفة التي مرت عليها كالموامل الجوية وسكنى البشر في داخلها او عند فتحة تلك الكهوف (١٨) . ولقد عاش انسان ماقبل التاريخ فترة طويلة من الزمن في المناطق المرتفعة المنتشرة في اوربا والشرق الادنى منذ اكتشافه للنار وحتى العصر الحجري الحديث الذي انتقل فيه الانسان الى السكن في العراء مستوطنا اولى انواع القرى (١٩) .

وبما ان العراق وفلسطين تحتويان على سلسلة من احواض مجوفة تحف بها الجبال فقد اعتبرت الاستاذة دوروثي كارود المواطن المتحمل لانسان النياندرتال ، ولقد شجعت نتائج الدراسات التي قامت بها في العراق ان توفد جامعة ميشيكان في عام ١٩٥١ بعثة للتحري عن الكهوف في منطقة راوندوز ، وبعد دراسة مستفيضة للمنطقة استطاعت معرفة خمسة عشر كهفا سكنت من قبل انسان العصر الحجري القديم والوسيط واختارت البعثة من بينها اهم تلك الكهوف للتنقيب فيه والكشف عن ادواره الحضارية المتعاقبة وهو كهف شانيدار الواقع في جبال زاكروس على ارتفاع (٧٢٢) متر وتقدر فتحته بخمسة وعشرون مترا وارتفاعه ثمانية امتار وطوله اربعون متر . قسم كهف شانيدار الى اربعة طبقات جيولوجية وحضارية وحدثت السكنى فيه في العصر المستيري اذا لم تكن في العصر الحجري القديم وقدرت الازمان الحضارية التي تم الحصول عليها ب ٧٥٠٠٠ - ٥٠٠٠ سنة وذلك بواسطة طريقة اختبار كاربون (١٤) ، فاعتبر بذلك من اهم معظم المواقع التي تمود الى العصور الحجرية الموجودة في غربي اسيا بسبب العثور على مجاميع حضارية

18. Carleton S. Coon. Seven Caves ; 1957 ; p. 27.

19. V. Gordon Childe, Man Makes himself ; 1961 ; pp. 24, 49, 50.

مهمة (٢٠) . لقد زودتنا نتائج هذه البحوث بمعلومات ادت الى عمل اطار جديد للعصور الحجرية القديمة في غربي اسيا حيث لم تكن هناك بحوث منسقة عن تلك العصور حتى تم اكتشاف كهف شانيدار في العراق .

وكان في الشرق الادنى اختلاف اقليمي في كمية المعلومات الموجودة انذاك عن منطقة فلسطين وسوريا فيما يخص دراسات العصر الحجري القديم . ولكن الاعمال الباهرة التي قامت بها دورثي كارود في جبل كرمل وعثورها على مواد حضارية تعود الى القسم الاخير من فترة العصر الجليدي الثالث (٢١) ، وجود رينية نوفيل في صحراء يهودا ومساعي الفريد رست في يبرود (٢٢) (سورية) اضافة الى الدراسات العلمية في جبال كردستان انفة الذكر هي التي مهدت لاكتمال الاطار الجديد للعصور الحجرية القديمة .

اما في مصر شمالي افريقيا فكان اناس هذه المناطق من العالم القديم لازالوا يستعملوا الطرق الاولى لصنع الادوات الحجرية ، بينما ظهر في غربي اسيا واوروبا تقليد جديد في الصناعة اطلق عليه « صناعة الشفرات » ، الا انه لايزال غير مؤكد اين تطور التقليد الاول لانتاج هذا النوع من الصناعة ولو انه عثر على اقدم ادوات هذا النوع في اعماق طبقات كهوف جبل الكرمل وكذلك في اعماق طبقات الكهوف في سوريا وفرنسا ووجدت في الشرق الادنى وفي القارة الافريقية واسبانيا وفرنسا وانكلترا صناعة اخرى هي صناعة لب الصوان ، وان انسان هذه الصناعة يعود للعصر المستيري ، فمن الناحية الصناعية كان انسان هذا العصر متأجرا في صناعة الشظايا ولو انه تعلم صناعة لب الصوان ايضا (٢٣) .

20. Ralph S. Solecki, 1964 : Shanidar Cave, a late Pleistocene Site in Northern Iraq. Report of the VIth International Congress of Quaternary. Vol. IV (Archaeological and Anthropological Section), pp. 413-423.
21. Garrod, D. A. E. and D. M. A. Bate, 1937 : The Stone Age of Mount Carmel. Vol. I : Excavations at the Wady Ele-Mughara. Oxford.
22. Rust, A., 1950 : Die Höhlenfunde Von Jabrud.
23. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1967 ; p. 31.

واذا تحولنا الى منطقة ايران نجد ان الانسان البدائي قد خلف لنا مواد حضارية تم تحليلها باختبار كاربون (١٤) وحصلنا على التسلسل التاريخي الذي اظهرته الطبقات المختلفة في الكهوف التي عاش فيها انسان المصهور الحجريه .

ففي كهف بيهستون الذي يبعد حوالي خمسين كيلو مترا الى الشرق من مدينة كرمينشاه وعلى ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ظهرت فيه طبقات صخرية كلسية ذات لون وردي تقريبا ، والكهف نفسه حصيلة شق عمودي طرأ على اسفل الطبقات الصخرية في هذه المنطقة . ظهرت في هذا الكهف طبقتان من التربة فقط ، الاولى رمادية اللون وهي الطبقة العليا والثانية محمرة تعود الى عصر البلايستوسين لم تظهر اي تبدل في لونها لتجعل من السهل معرفة تعاقب السكنى والتبدل المناخي في هذا الكهف .

يمكن تمييز ثلاث فترات رئيسية فيه في عصر البلايستوسين التي تعتبر من اهم الفترات في الكهف فهي التي زودتنا بالبقايا الحضارية والهيكل العظمي لانسان النياندرتال ومنها فقط تمكنا الحصول على معرفة تامة لهذا الانسان في منطقة ايران .

ان الانسان الذي عاش في كهف بيهستون لم يحضر طعامه في داخل الكهف والدليل على هذا هو عدم وجود بقايا رماذ او ماشيه ، ومن المحتمل جدا ان اللذين سكنوه وهم من نوع النياندرتال قد اعتبروا داخله اما مكان مقدس او اتخذوه للخزن حيث انه بنتيجة دراسة الحالة الاجتماعية ظهر بان المواد الحضارية الاكثر اهمية قد وضعت في مكان معين من الكهف واعتقدوا بان لهذا المكان تأثير سحري لحفظ تلك المواد ، اضافة لذلك فقد دلت الدراسة الاجتماعية على ان هذا الكهف يعتبر افضل مكان للطوطمية وهذا الاستنتاج قد توصلت اليه هذه الدراسة لوجود صفات معينة لموقع الكهف الذي يشجع على وجود صفة دينية واضحة فيه حيث انه يشرف على سفح جبلي وعيون مياه وقربه من منطقة تساعد على الصيد ، ادت هذه العوامل الى الاعتقاد بالناحية القدسية عند الانسان القديم .

عُثرت بعثة التنقيب على اربعة انواع متميزة من الادوات هي :

١ - لب الصوان الذي يمثل حضارة العصر القديم الاول الذي شاع استعماله قبل الحضارة المستيرية ايضا .

٢ - الشظايا

٣ - الآلات الشفروية

٤ - الآلات الشظوية

اضافة لذلك عثرت البعثة على مجموعة من الاقراص الصوانية السميكة وهي آلات مدورة ملأمة لقشط وقطع المواد الصلبة (٢٤) .

اما في ك ف حزام الذي يبعد حوالي ستة كيلو مترات عن قزوين فان الحالة الحضارية فيه اكثر تعقيدا من تلك التي جاءت من كهف ، بيهستون ، حيث ظهر بان هناك ثلاث او اربع حالات سكنى في كهف حزام بينهما في بيهستون تمثلت فيه سكنى رئيسية واحدة . وبالنسبة لمعدل كثافة المواد الحضارية فهي في هذا الك ف اعلى مما ظ ر في ك ف بيهستون ، ففي هذا الاخير ظهرت حضارة واحدة رئيسية بينما في حزام ظهرت ثلاث حضارات متميزة هي :

١ - العصر الحجري المتوسط الاول

٢ - العصر الحجري المتأخر

٣ - العصر الحجري الحديث

ففي العصر الحجري المتوسط الاول ظهرت كميات هائلة من المواد الصوانية ولهذا السبب اعتبر كهف بيلت عبارة عن مصنع لهذه المواد لاسيما في جزئه الخلفي . اما في فترة الميسوليثيك المتأخر فقد انعكست الصورة حيث انعدم استعمال لب الصوان تقريبا وان معدل الآلات الصوانية الطويلة قد انخفض جدا (٢٥) .

24. Carleton S. Coon, Cave Explorations in Iran ; 1951 ; pp. 6-65.

25. Ibid, p. 37.

وبالنسبة للمواد العظمية فلم تظهر اعداد كبيرة منها في فترة
الميسوليثيك الاول وهذا يدل على ان الاناس اللذين سكنوا الكهف لم يجلبوا
الى داخله كل ماحصلوا عليه في حياتهم اليومية ، بينما نجد العكس في فترة
الميسوليثيك المتأخر حيث عثر على مواد عظمية كثيرة لاسيما قرون الحيوانات
التي تمثلت خمسة عشر منها للماعز ، وربما يستنتج من ذلك بان اناس
الميسوليثيك المتأخر ادخلوا القرون فقط الى داخل الكهف وتركوا بقية عظام
الجمجمة في الخارج .

كان اناس فترة الميسوليثيك المتأخر عبارة عن صيادين يتجولون في
الغابات والسهول بغية الحصول على الغزلان والثيران ومع ذلك فانهم اصطادوا
الماشية البرية والماعز البري وبدأوا في هذه الفترة بتدجين الماعز (٢٦) .

بعد هذا الكشف عن الجوانب المتعددة لحضارة انسان ما قبل التاريخ ،
نعود لنذكر بعض اهم منجزات انسان النياندرتال .

ليس هناك دليل يثبت ان هذا الانسان استطاع صنع ادوات من مادة
اخرى غير مادة الحجر ، فلم يتمكن من استخدام المواد العظمية او قسرون
الوعل لصنع ادوات او اسلحة دفاعية . وبما انه صياد فقد امتاز بصيد نوع
معين من الحيوانات ولم يظهر قابلية على انواع الصيد حيث لم نعثر على اي
دليل يؤكد على انه اصطاد الاسماك او الطيور البرية .

اما بالنسبة للناحية الفنية فيبدو انه لم يكن ذا قابلية فنية ولو كان
العكس لتترك لنا نماذج فنية يمكن ان تنسب اليه (٢٧) .

بحثنا سابقا عن الصفات البايولوجية لهذا الانسان وكذلك الانسان
العاقل ، لذا لا بد من التساؤل عما اذا كان قد انحدر الانسان العاقل من
انسان النياندرتال ؟

26. Ibid, p. 44-50.

27. Grahame Clark, From Savagery to Civilization ; 1946 ;
pp. 40-41.

ذكرت بعض النظريات على ان الانسان العاقل قد انحدر من النياندرتال . وجاءت تلك النظريات وهي مستندة على الصفات المورفولوجية التي اظهرها النياندرتال المتطور لاسيما صفات الوجه والساقين التي ظهرت في وقت سبق وجود الانسان العاقل ، وهذا بخلاف النياندرتال الكلاسيكي الذي انقرض بسبب الجليد في اوربا ولم يترك من يخلفه .

اما النظريات الاخرى فمغايرة للنظريات الاولى ومنها نظرية « الكارثة » و « تعدد الخليقات » وكلها تستند على القول بانه لم تكن في الوجود خليفة واحدة بل كانت هناك عدة خليقات ، وبما ان الكوارث تحصل بين فترة واخرى فتكون ضحيتها كل الكائنات فتليها خليفة جديدة في الوجود . وتضيف هذه النظرية بما انه لم تظهر اية رابطة من الناحية الوراثية بين انسان بكين والنياندرتال والانسان العاقل ، وبما ان الانسان العاقل هو الذي قضى على انسان بكين والنياندرتال ، لذا فانها تؤكد على ان الانسان العاقل لم ينحدر من النياندرتال .

اننا نميل الى النظريات الاولى القائلة بانحدا رالانسان العاقل من انسان النياندرتال ، ومن الصعب الاخذ بنظرية الكارثة وذلك بسبب تفوق الانسان العاقل في ذكائه وكذلك في نوعية صناعته المتميزة باستعمال الشفرات التي فاقت صناعة الشظايا المستيرية .

امتوطن الانسان العاقل اوربا قبل (٣٠) الف سنة وانتشر في ارجاء العالم ، وان انسان النياندرتال في الصين حل محل الانسان المعتدل القائمة ثم جاء الانسان العاقل وحل محل انسان النياندرتال . وقد عثر على هياكل عظمية في شانسلاد (فرنسا) تعود للانسان العاقل ومن دراستها ظهرت فيها صفات مورفولوجية شبيهة بصفات الاسكيمو ، اما التي عثر عليها في كريمالدي (ايطاليا) فكانت صفاتها شبيهة بصفات الزنوج . ومن ذلك توصيل الانثروبولوجيون عن طريق دراسة نتائج مقارناتهم على ان تلك الهياكل العظمية تمثلت فيها ثلاثة اجناس بشرية هي المغولية بانسان شانسلاد ، والزنوجية بانسان كريمالدي ، والقفقاسية بانسان كرومانيوم .

نستخلص من كل ذلك بانه خلال مرحلة الثلاثين الف سنة الماضية اتخذت عملية التطور نمطا مغايرا للنمط الذي كان قبل حوالي مليون سنة ، حيث انه ظهرت في البداية صفات بايولوجية بينما شهدت عملية التطور في

فترة الانسان العاقل تطورا حضاريا شملت صناعة الادوات الحجرية وظهور نواحي فنية مختلفة كمنقوش ورسوم هذا الانسان على جدران الكهوف وخاصة في فرنسا واسبانيا وجيكوسلوفاكيا (٢٨) .

تعتقد الاستاذة دوروثي كارود ان التقليد الجديد في الصناعة التي اطلق عليها بـ « صناعة الشفريات » قد حدث في مكان ما من الشرق الاوسط / ولهذا اعتبرت السواحل الجنوبية والشرقية من البحر الابيض المتوسط من اهم المناطق ليس لهذا السبب فحسب بل لانه في مكان ما من هذه المناطق حصل التبدل الاساسي في حياة الجنس البشري حيث تعلم الانسان تدجين النباتات والحيوان وتعلم انتاج قوته (٢٩) .

لقد اطلق على هذه الصناعة الجديدة في شمالي العراق باسم «الصناعة البرادوستية» ، ومن المحتمل ان حدث انتقال من الصناعة المستيرية المحلية الى هذه الصناعة . ومن دراسة عظام اناس صناعة الشفريات ظهر انهم من نوع الانسان العاقل .

اما في اوربا ، لاسيما في الفترة المحصورة بين ٤٠.٠٠٠ - ١٠.٠٠٠ سنة فقد تحسن المناخ ، وبذلك اختفى انسان النياندرتال وحل محله الانسان الحديث (٣٠) وبنتيجة ذلك بدأ حدث جديد في مناطق اوربا والبحر الابيض المتوسط ، حيث صنع الانسان انواع السكاكين والابر المثقوبة ورؤوس الرماح من العظم ، واستعمل اسنان بعض الحيوانات كقلائد ودلايات بعد ثقبها . اما بالنسبة لقرون الوعل فقد شرع باستعمالها في هذه الفترة ايضا وبصورة خاصة في مناطق اواسط غربي اوربا (٣١) .

وظهرت البوادر الاولى للفنون على الكرة الارضية قبل ٢٥.٠٠٠ سنة ، ففي هذا الوقت صنع الانسان موادا عظمية وعاجية ليزين بها نفسه ، وكانت هذه المواد تزخرف بنماذج هندسية بسيطة الاشكال .

٢٨ - الدكتور عبد الجليل جواد ، مجلة سومر العدد ٢٨ سنة ١٩٧٢
صفحة ٤٤ .

29. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1967 ; pp. 73-80.
30. V. Gordon Childe, Man Makes Himself ; 1961 ; pp. 49-50.
31. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1964 ; pp. 54-70.

ان معظم ماحققه الانسان فنيا قد تم في الفترة التي كان فيها الجليد لا يزال يغطي مناطق شاسعة من شمالي اوربا ، وقد تمثلت تلك المنجزات الفنية بالتلوين والحفر والنحت حيث عثر عليها في كهوف جنوبي غربي فرنسا واسبانيا وايطاليا .

شهدت هذه الحقبة من الزمن ظهور حضارات متعددة في مناطق مختلفة من العالم القديم اهمها هي الحضارة الاوركنيشية ، وفي الحقيقة حدث تطورها في غربي اسيا ، وقد برهنت نتائج الاستكشاف على انها امتدت الى الشرق وخاصة الى شمالي العراق وافغانستان .

اما منجزات انسان هذه الحضارة فيعتبر ضئيلا قياسا على ماتم تحقيقه من قبل اسلافهم اصحاب صناعة الشفرات ، الا انهم استطاعوا التفوق بميزة واحدة والتي ظهرت جليا في تقدمهم بصناعة الرؤوس المدببة المعمولة من العظم التي استعملوها بكثرة في ادوات الاسلحة ، فهم اللذين توصلوا لمعرفة هذه الصناعة .

وظهرت بعد ذلك حضارة اخرى اطلق عليها اسم (الحضارة الكرافيتية) التي غطت على الحضارة الاوركنيشية وبصورة خاصة في فرنسا .

عاش اناس هذه الحضارة ذوي القابلية العقلية المتطورة في مواقع في المراء وفي مساكن اصطناعية . وتميزت الحالة الاجتماعية عند هؤلاء الاناس بالوحدة العائلية حيث كانت طريقة السكن اما بشكل عدة جماعات في مساكن انفرادية او مساكن متصلة مع بعضها .

امتازوا بصيد حيوان الماموث وهو حيوان ضخم والى جانبه اصطادوا الحيوانات الصغيرة ايضا ، واشتهروا بصنع المواد العظمية والعاجية كالمخارز والمثاقب وادوات الزينة وعمل الملابس المصنوعة من الجلود (٣٢) .

وفي مناطق غربي اوربا فقد ظهرت بداية فنون متعددة اهمها :

١ - الفنون التشكيلية

٢ - النحت والتلوين في الكهوف

32. Stuart Piggot, the Dawn of Civilization; 1961 : pp. 24-38.

بالنسبة للفنون التشكيلية فقد اشتملت على الحفر والحزوز وعلى تشكيلات فنية اخرى تزخرف بها الاسلحة والسكاكين والرماح وحراب صيد الحيتان ، وكانت تزخرف الجوانب المسطحة من هذه الالات باشكال هندسية او حيوانية او نباتية . وان قسما من هذه الفنون لم يشمل الادوات فحسب بل ظهر بشكل مستقل على هيئة دمي صغيرة لنساء حوامل ، حيث كان الاعتقاد بان دمي الالهة - الام تعني القوى الطبيعية التي تمثل الخصب وولادة الحياة .

اما بالنسبة للرسوم الجدارية ورسوم الكهوف فقد وصلت منها نماذج تمثلت بصور الحيوانات على الجدران واشهرها الماموث والكركدن والحصان الوحشي والدب والثيران الوحشية والماشية والغزال وهي الحيوانات التي عاشت في اقصى فترة مناخية باردة . وكما ذكرت سابقا بان هذه الفنون جاءتنا من جنوبي فرنسا وشمالى غربي اسبانيا وروسيا .

وقد وجدت طرز فنية اخرى في شرقي اسبانيا وشرقي البحر الابيض المتوسط وافريقيا ، وتتضمن في بعض الاحيان رسوم حية الا انها غالبا ماتمثل رسوم بشر تصطاد بالقوس والسهم ، وقد عثر على هذا الطراز الفني مرسوما على الحافات والملاجيم الصخرية الواقعة شرقي اسبانيا (٣٣) .

ونجد في العصر الحجري الحديث (Neolithic) تبايرات شاسعة في عالم الفنون ، فقد كان اناس هذا العصر ذوي قابليات فنية تفوق تلك التي ظهرت عند اسلافهم ، وبصورة خاصة في التقنية والتعبير الحضاري وكذلك طريقة استعمال مواد متعددة . واصبح عند اناس هذا العصر شعور خاص بالنسبة لحساسية الجمال التي استطاعوا التعبير عنها لأول مرة في تاريخ الجنس البشري بأسلوب فني اصيل . وتعتبر كهوف شمالى اسبانيا وجنوبي فرنسا اغنى مناطق العالم القديم التي ظهرت فيها هذه (٣٤) .

ان الدلائل تشير على ان الصيد كان المصدر الرئيس لقوت انسان هذا العصر ، فقد عثر في معظم المواقع التي سكنها هذا الانسان على عظام اللبائن

33. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1964 ; pp. 71-72.

34. Grahme Clark, From Savagery to Civilization ; 1964 ; pp. 43-63.

والطيور والاسماك وانواع حيوانات اخرى . ويمكن اثبات ذلك ايضا بواسطة معرفة رسوم تلك الحيوانات التي رسمها في الكهوف والملاجيء الصخرية .

اما بالنسبة للمواقع المتأخرة التي عاش فيها هذا الانسان فتوجد ادلة أكيدة تثبت كونه قد اعتمد اعتمادا كبيرا على الحيوانات المدجنة ، ومن دراسة عظام الثيران والغنازير والاعنام يمكن الحصول على معلومات تؤشر بشكل قاطع على بؤادر انتقال اقتصادي من عالم جمع القوت الى عالم انتاج القوت (٣٥) . فبدأ الانسان بالتقريب من بعض الحيوانات التي رأى فيها قابلية اللفة أكثر من غيرها ، الا ان معرفة بداية تدجين الحيوان لا يمكن مقارنتها بمعرفتنا عن تدجين النبات واصوله الاولى .

لقد استنتج روبرت دايسن بان جميع الادلة الاثرية الموجودة لدينا عن جنوبي غربي اسيا تشير الى ان هذه المنطقة تعتبر المنطلق الاول الذي تمت فيه عملية تدجين الحيوانات الرئيسة ، وان تدجين اي من هذه الانواع الرئيسة لا بد وان تم في البيئة الطبيعية التي عاش فيها السلف الوحشي لتلك الانواع ، ولهذا لم تكن الاعنام والماعز قد دجنت في القارة الافريقية . ثم انه من الضروري بالنسبة لكلا الانسان والحيوان من التواجد والعيش في نفس البيئة في الفترة التي سبقت عملية التدجين .

ويعتقد زويثر بانه لا بد وان حدث تقارب من قبل الانسان لبعض الحيوانات في منطقة ما بحيث انهما عاشا فيها سوية ومن ثم تبناها بشكل تلقائي ، ولهذا فان زويثر لا يعتقد بوجود سلوك معين استغرق زمنا طويلا الى ان استطاع الانسان من تدجين الحيوان لكنه يعتقد ان عادة تدليل صغار بعض الحيوانات الوحشية من قبل النساء والاطفال انذاك جعلت تلك الحيوانات تألف الانسان واصبح من السهل تدجينها . اما في مجتمعات الصيد البدائية الاولى فان مثل هذا النوع من تدليل صغار الحيوانات ربما قد حدث واستغرق زمنا طويلا لكن نتائجه كانت سلبية (٣٦) .

35. Grahame Clark, Archaeology and Society ; 1947 ; pp. 153-159.

36. Robert J. Braidwood and Bruce Howe, Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan ; 1960 ; pp. 121-124.

لقد ادت قابلية الانسان على سيطرة وتطوير انواع النباتات الى نتائج مفيدة له . ان احدى تلك الفوائد الرئيسية بنتيجة توصله الى معرفة تدجين الحيوان والنبات هي الطمأنينة التي شعر بها فيما يخص قوته واحتياجاته الاخرى . اما الفائدة الاخرى التي حصل عليها اناس انتاج القوت هي انهم تركوا حياة التجوال واصبحت حياتهم اكثر استقرارا .

ان من اهم التأثيرات الاساسية لعملية التدجين انها جعلت كثافة جماعات الجنس البشري تزداد تدريجيا وبصورة خاصة عند تلك الجماعات التي باشرت بهذه العملية سواء للحيوان او النبات . فالظروف الاقتصادية التي عاشها اناس جمع القوت جعلت ما يحصل عليه الافراد لا يكفي لسد احتياج عائلة صغيرة بخلاف اناس انتاج القوت حتى في المرحلة البدائية الاولى الذين اصبح لديهم فائض عن حاجتهم لاسيما اذا كانت اماكن سكنهم تقع في منطقة جغرافية تساعد على ذلك .

فالحالة الاقتصادية الجديدة صحبتها افكار جديدة حيث نجد الخصب قد حل محل الصيد . اضافة الى ان اناس جمع القوت قد قسموا العمل فيما بين الجنسين على اساس ان الرجال كان من اختصاصهم مطاردة وصيد الحيوانات وتقوم النساء بجمع الاثمار البرية ، بينما نجد ان الرجال في فترة انتاج القوت كان عليهم واجب تربية الحيوانات وتعمل النساء في الحقول (٣٧) . استنادا الى دراسات مقارنة .

ربما كان ظهور ادوات الحجر الصغيرة الاحجام (المايكروليث) في غربي اسيا حدث في حدود الالف العاشر ق . م . بل من المحتمل اقدم بقليل من هذا التاريخ ، فقد دلت المعرفة بتلك الادوات على انها العلامة المتميزة لبداية الحالة الاقتصادية الجديدة التي انتقل اليها الانسان من طور جمع القوت الى طور انتاج القوت الذي بدأ الانسان فيه من تحضير قوته بنفسه بدلا من الاعتماد على الطبيعة ، وقد ادت هذه الخطوة الى استقراره في مقاطعات زراعية قروية . وبظهور بداية القرى الزراعية البسيطة اخذت تظهر في الافق طريقة جديدة للحياة اطلق عليها الامتاذ جايلد « مرحلة ثورة انتاج القوت » .

37. Grahame Clark, From Savagery to Civilization, 1946 ; pp. 70-86.

وخلال الفترة الاقتصادية التالية لانتاج القوت لم يكن لازماً على الانسان ترك محل سكناه في سبيل الحصول على قوته بل نجده على عكس ذلك حيث عرف خزن اللحوم الفائضة عن حاجته ووضعها في اماكن عملها خصيصاً لهذا الغرض واستعمل جرار كبيرة لخزن الحبوب وعاش في بيوت دائمية . وبهذا تكونت اولى القرى الصغيرة التي عاش فيها بالقرب من ماشيته وحقله .

وبمرور الزمن كان لابد للمزارعين الاول من ان يعيشوا حسب قواعد جديدة ، واصبحت هناك حاجة شديدة الى من يحمي حقولهم وماشيتهم ولهذا شرعوا باقامة مباني خاصة وضموا فيها دمي تمثل الهة تشرف على خصيب المراعي وتحميها من اخطار الطبيعة القاسية (٢٨) .

ان ظهور الزراعة في الشرق الادنى ادى الى اعتبار هذه المنطقة هي البيئة الاصلية لمعرفة انواع مختلفة من الحبوب واهمها القمح ذو السنبلية الواحدة الذي ينمو في تربة ضعيفة وامتدت زراعته من البلقان الى غربي ايران . والنوع الثاني هو من فصيلة القمح الروسي الذي يستعمل لغذاء الماشية واشتهرت بزراعته اذناك مناطق العراق وسوريا وفلسطين وشرقي تركيا وايران (٢٩) .

ففي العراق يعتبر اناس حضارة « زرزي » اخر جماعة حقيقية سكنت الكهوف وهم اللذين مثلوا المرحلة الانتقالية لتطور جمع القوت ، وكانت بعض مستوطنات عصر زرزي عبارة عن مواقع في المراء مما يدل على ان اهاليها سكنوا الكهوف لمدة معينة من السنة وسكنوا المراء لمدة اخرى . وان مااعتمدوا عليه كمصدر رئيسي في قوتهم هي القواقع التي عثر عليها بكميات هائلة عند الكشف عن بقايا مستوطناتهم الاولى (٤٠) .

اما حضارة كريم شهر فتشمل على ثلاثة مواقع سكنت في المراء وهي موقع « كريم شهر » وكرد جاي و زاوي جيمي بالقرب من شانيدار .

38. Ibid, pp. 87-114.

39. James Mellart, the Beginning of Village : in the (Dawn of Civilization) ; 1961 ; p. 55.

40. Robert J. Braidwood and Bruce Howe, Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan ; 1960 ; p. 18.

ان ماعثر عليه من مواقد وحفر خزن الطعام في كريم شهر و كرد جاي تؤكد على السكنى في هذين الموقعين دون الاشارة الى وجود دلائل للزراعة فيهما . ولكن مع ذلك عثر على احجار الطعن وعدد لا بأس به من المعازق العجورية وهي ربما تشير الى البدايات الاولى لانتاج القوت . وان ماعثر عليه في موقع كريم شهر من عدد هائل لعظام الاغنام والماعز والمواشي والخييل والكلاب يدل بلاشك على ان اهالي هذا الموقع قد توصلوا الى معرفة تدجين تلك الحيوانات .

و خلاصة القول كان هذا الموقع عبارة عن مستوطن موسمي وقتي ربما سكنه الانسان في فصول الصيف والجفاف (٤١) .

اما موقعي « ملفعات » و « زاوي جيمي » فيبدو انهما قد سكنا بشكل اكثر استقرارا مما هي عليه الحالة في موقع كريم شهر ومع ذلك فانهم لا يعودان الى مرحلة القرى الزراعية الثابتة .

ان اول موقع يمثل بداية المرحلة الجديدة التي اتصفت بصفات القرى الزراعية هو موقع جرمو (٤٢) .

كانت جرمو عبارة عن قرية دائمية سكنها انسان العصر الحجري الحديث بشكل متواصل لفترة تقارب (٢٥٠) سنة ، وكان فيها حوالي (٢٥) بيت ، وقد قدر علماء الاثار والانثروبولوجي عدد السكان فيها بانه لا يتجاوز المائة والخمسون شخصا (٤٣) .

زرع اهالي جرمو نبات الشعير ونوعين من الحنطة ، وضعوا مناجل من شفرات صوانية لصقوها بالقار واستعملوها لحصاد القلة واستخدموا الهواوين الحجرية طحنوا بواسطتها تلك القلة والمعروف عن اهالي جرمو انهم دجنوا الماعز والاغنام والكلاب ويبدو انهم دجنوا الخنازير ايضا في الفترة الاخيرة من حياة القرية .

41. James Mellart, the Beginning of village : in the **Dawn of Civilization** ; 1961 ; P. 56.
42. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1964 ; pp. 116-120.
43. James Mellart, the Beginning of Village : in the **Down of Civilization** ; 1961 ; P. 59.

كانت بيوت جرمو لاتتعدى مساحتها حجم الكوخ ، كل منها يحتوي على عدد من غرف صغيرة مستطيلة الشكل ، بنيت جدرانها من الطين وغالبا ماكانت تبني فوق اسس حجرية .

تمرس اهالي جرمو على صنع الاواني الحجرية حيث لم يعرفوا صناعة الاواني الفخارية الا في الثلث الاخير من حياة القرية . استحسن اهاليها صنع نوع واحد من دمي الجنس البشري الا وهو دمية المرأة الحامل التي تمثل بالالفة الام وتشير الى النصب كما صنعوا دمي كثيرة تمثل الحيوانات واخصها الكلب (٤٤) .

اما بالنسبة للقوى الزراعية الاخرى التي تلت قرية جرمو وخاصة شمالي العراق فانها لازالت غير معروفة لدينا ، وان ماجاء منها في دور حسونة لا يكفي لاثبات ذلك ، الا انه ظهرت في قرية حسونة طرق متعددة لصنع وزخرفة الاواني الفخارية ومن طرزها في ذلك الطراز المميز لتلوين النخار المعروف بطراز سامراء .

ان الاعتقاد بالعادات والتقاليد الموروثة التي اتبعت لصنع الادوات الحجرية من زمن حسونة قد اختفت ولكن المكتشفات الاخيرة في « تل الصوان » منذ عام ١٩٦٥ وما عثر عليه من لقي حجرية تعود لعصر حسونة قد غيرت من تلك المفاهيم وربما ستكشف مواقع اخرى يستدل منها على نوعية الزراعة في عصور ما قبل التاريخ .

الغائمة

تلك هي المراحل الاساسية التي مرت على الانسان منذ ظهوره للوجود الى ان عرف الزراعة ودجن الحيوان واستقر في قرى دائمية طور فيها اسلوب حياته .

وبما ان المراحل المتعددة التي مرت على الانسان منذ العصور السحيقة في القدم قد حدثت في اوربا وافريقيا واسيا فان الجنس البشري قاسى كثيرا من تقلبات المناخ ومطاردة الحيوانات الوحشية حيث لم تكن لديهم سوى قواعد بسيطة ساروا عليها الى ان تعلموا التدجين لكلا النبات والحيوان وبصورة خاصة في الشرق الادنى .

وبما ان اصول البشرية أصبحت معروفة عن طريق التقصي العلمي فلم تكن هناك حاجة للانسان من تفسير اخر يرتبط بالمعتقدات الكثيرة التي كان يقنع بها نفسه ولم يعترف برابطة اصله بالقرود السفلى والعليا على الرغم من اننا نعيش في العصر الدارويني ، ومع ذلك فليست فكرة تطور الانسان اقتصر على دارون وانما ظهرت في كتابات اليونان قبل حوالي (٨٠٠) سنة والتي اخذ عنها علماء التطور في القرن الماضي امثال لويس وركان الذي اضاف الكثير من معلومات اليونانيين في كتابه المعروف 'المجتمع القديم' وهذا يدل على انه اعتمد على هذه الافكار اليونانية اكثر اعتماده على نظرية دارون على عكس هكسلي الذي دافع عن نظرية دا كتابه 'مكان الانسان في الطبيعة' .

ان نظرية دارون ظهرت عام (١٨٥٩) في كتابه المشهور ' اصل الانواع بواسطة الانتخاب الطبيعي ' حيث صرح بان التغيير التطوري يعود لمجموعة عوامل اهمها الانتخاب الطبيعي .

وبما ان التغيرات التطورية ظهرت بمراحل لذلك قسمت بواسطة المصور الجيولوجية الى مرحلة البشر المعتدل القامة ومرحلة انسان النياندرتال والانسان العاقل وهي مراحل تطورية لم يقف عند اي منها بل توارثها الانسان منذ البداية الاولى الى ان تعلم مختلف الفنون والابتكارات المدهشة .

مصادر البحث

1. Anton Lubke, the World of Caves ; 1958 ; pp. 44-48, 166-170.
2. Brace, C. Loring. the stages of Human Evolution ; 1967 ; pp. 83-96.
3. Carleton S. Coon, Cave explorations in Iran ; 1951 ; pp. 6-65.
4. Grahame Clark, From Savagery to Civilization : 1946 ; pp. 25-35-38 40-41-43 63-70-86.
5. Grahme Clark, Archacology and Society ; 1946 ; 1947 ; pp. 40-41.
6. Garrod, D. A. E. and D. M. A. Bate, 1937 : The stone Age of Mount Carmel, Vol. 1 : Excauvations at the Wady El-Mughara, Oxford.
7. Garrod, D. A. E., the Palaeolithic of Southern Kurdistan : Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Merd, Bulletin of the American School of Prehistoric Research ; 1930 ; No. 6 ; pp. 12-14.
8. Howell, F. C., the Evolutionary significance of Variation and Varieties of Neanderthal Man ; 1967 ; pp. 330-347.
9. James Mellart, the Beginning of Village : **in the Dawn of Civillization** ; 1961 ; pp. 55.
10. Mckern and Mckern, Human origins, 1969 ; pp. 88-93.

11. Stuart Piggot, the Dawn of Civilization ; 1961 ; pp. 24-38.
12. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men ; 1967 ; pp. 7-34 ;
1964 ; pp. 33-53, 116-120.
13. Robert J. Braidwood and Bruce Howe, Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan ; 1960 ; pp. 121-124.
14. Rust, A.. 1950 : Die Hohlenfunde Von Jabrud.
15. Ralph S. Solecki, 1964 : Shanidar Cave, a late Pleistocene site in Northern Iraq. Report of the Vith International Congress of Quaternary, Vol. IV (Archaeological and Anthropological Section), pp. 413-423.
16. Ralph S. Solecki, Early Man in Cave and Village at Shanidar ; 1959 ; p. 714.
17. Simpson, Gaylord G, the Biological Nature of Man. In Perspectives of Human Evolution ; 1967 ; pp. 8-10.
18. Stuart Piggot, the Dawn of Civilization ; 1961 ; pp. 24-38.
19. الدكتور عبد الجليل جواد ، مجلة سومر ، عدد ٢٨ ، سنة ١٩٧٢ ،
صفحة ٤٤ .
20. V. Gordon Childe, Man Makes Himself ; 1961 ; pp. 22-29.
...
21. Oakley, Kenneth, Man the tool-Maker ; 1966 ; pp. 1-22.